الحملة العثمانية على عدن سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م
ظروفها، أسبابها، تداعياتها ونتائجها

أ.د. محمد كريم إبراهيم
جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الإنسانية –قسم التاريخ
جمهورية العراق

– الخلاصة –

ركز البحث على بيان ظروف الدولة العثمانية خلال عهد السلطان سليمان القانوني وطبيعة التحديات والأخطار المحدقة بها، فضلا عن الأوضاع السياسية في المناطق التابعة لها وتعرضها للتهديدات الخارجية من خلال الصراع بين العثمانيين والصفويين والبرتغاليين.

درس البحث الحملة العثمانية التي انطلقت من ميناء السويس في مصر مروراً بميناء جدة، وما ضمت من الجنود والسفن وإمكانيات القتال التي أسندت إلى سليمان باشا الطواشي ويسمى: الخادم، وكيف تم تجهيزها خلال فترة قصيرة وسريعة، لأسباب عديدة وردت في البحث.

أوضح البحث طبيعة وتأثير الصراع السياسي والمذهبي في اليمن، بين السلطان عامر بن داوود الطاهري سلطان عدن والإمام شرف الدين وولده المطهر الزيدي في صنعاء، وكيف أنهما راسلا القائد سليمان باشا الخادم، وكان كل واحد منهما يسعى للإيقاع بالآخر والقضاء على نفوذه في اليمن، من خلال التقرب من قائد الحملة المتوجهة نحو اليمن.

في البحث وصف لسير الحملة بعد مغادرتها ميناء السويس حتى وصولها إلى عدن في شهر ربيع الأول عام ٩٤٥هـ، وكيف أن جند الحملة نزلوا إلى مدينة عدن بمرافقة أحد القادة وهو الصوباشي فرحات ونبهوا المدينة وأسواقها، وبعدما تأكد سليمان باشا الخادم من سيطرة جنده على مدينة عدن، أمر بإعدام سلطان عدن عامر بن داود ومن معه على سفينته في البحر بعد خمسة أيام من وصولها، ثم قام سليمان باشا بتحصين مدينة عدن وشحنها بالمدافع وتعيين الأمير بهرام أحد قادة حملته حاكماً عليها.

ترك فعل سليمان باشا بإعدام السلطان عامر بن داود وجماعته أصداء وردود أفعال متباينة، لأنه استخدم أسلوب الغدر والخيانة ونكث العهود، لما امتاز به السلطان عامر من خصال حميدة وكرم وضيافة وحسن استقبال، ترددت على لسان مؤرخي الدولة العثمانية وصنائعها أمثال: النهروالي والموزعي وكثير من المؤرخين اليمنيين وغيرهم، وقد تباينت أسباب إقدامه على هذه الخطوة من قبل المؤرخين بين موال للطاهرين وموال للعثمانيين، أوردناها تفصيلاً في بحثنا.

كتب سليمان باشا الخادم إلى الباب العالي العثماني بسيطرته على عدن، وأنه أخذها مدعياً أنها من فتوحاته، وكتب على باب عدن أنه فتحها عام ٩٤٥هـ ثم توجه على الهند.

اتضح للسلطان سليمان القانوني كذب إدعاءات سليمان باشا الخادم عندما وصل إلى السلطان في إستانبول، وقدم له رسائل من أهل مكة وعدن وزبيد وغيرها، بأنه قد اخذ الهند وقتل الإفرنج واستولى على موانئهم، فليم يعاقبه السلطان، لكن كلامه لم يعقبه إلا وصول سفن الإفرنج إلى السويس وخوف أهل مصر منها، لذلك هرب سليمان باشا الخادم، وقيل قتل، وهذه رواية المصادر الحضرمية من أهل اليمن عنه كما هو موضح في بحثنا.

كان لغدر سليمان الخادم بالسلطان عامر بن داود في ميناء عدن آثاره البليغة على الدولة العثمانية، فقد حاول –كما ذكرنا–إخفاء أسلوبه الغادر عن المسئولين العثمانيين في إستانبول ثم كشف كذبه سريعاً.

وكان من نتائج وآثار حملة سليمان الخادم أنها أفقدت العثمانيين ثقة أهالي كثير من المناطق، وضيعت عليهم فرصة تكوين جبهة إسلامية في البحار العربية والمحيط الهندي لمواجهة الغزو البرتغالي، كما كان لأسلوب سليمان باشا الغادر أثره في موقف مسلمي الهند من الحملة العثمانية، وفشلها ثم انسحابها، بسبب عجزها عن الوصول إلى ميناء (ديو)، فضلا عن إن عدن سادها الاضطراب وعدم الاستقرار بعد حملة الخادم، فقامت القبائل المجاورة لها بغزوها، كما حصل في حملة الشيخ علي بن سليمان الطولقي المسمى: شيخ الطوالق شرق أبين، ووصول السفن البرتغالية إلى ميناء الشحر واستمر الصراع بين القبائل العربية في عدن وأطرافها ضد العثمانيين حتى خروجهم من اليمن سنة ١٦٣٠م.

(١) جذور وخلفيات الصراع بين القوي المحلية والدولية حول مدينة عدن:

في مطلع القرن السادس عشر الميلادي كانت سلطنة الطاهرين السنية في اليمن وعاصمتها مدينة زبيد، هي الدولة الأقوى في جنوب شبه الجزيرة العربية، وكانت عاصمتها تمثل مركزاً دينياً وثقافياً رئيسياً في البلاد، وقد بسطت هذه الدولة سلطتها على المناطق الزراعية وأكثر المدن المتطورة والمزدهرة في اليمن، بما فيها تعز وصنعاء وعدن ومخا، وارتكز الطاهريون على رجال الدين السنة أتباع المذهب الشافعي، وبمساندة جيش كبير من العبيد أو المماليك السود، وقد شكلت الطائفتان المتنازعتان: الزيدية والإسماعيلية اللتان كانتا تسيطران على المناطق الجبلية في شمال اليمن ووسطه، المنافس الدائم والعدو اللدود.

تميزت الإمامة الزيدية بشدة المراس في القتال وعرفت بتطرفها المذهبي، واتخذت مركز حكمها في المناطق الجبلية الشمالية، أما المركز الرئيس للإسماعيلية فكان في نجران الواقعة في الجزء الشمالي الشرقي من يمن القرون الوسطى.

وفي حضر موت إلى الشرق من الدولة الطاهرية قامت سلطنتان أخريان كبيرتان نسبياً، هما: سلطنتي اليمنيين وعاصمتها تريم، وسلطنة الكواسر وعاصمتها الشحر، وهي أكبر المدن واغناها على ساحل شبه الجزيرة العربية الجنوبي، وكما هو الحال في حضر موت كذلك في اليمن، اعتبر كثير من الحكام المحليين وأمراء القبائل البدو والفقهاء البارزين والمناصب، أو الزعماء الروحيون مستقلين تمام الاستقلال، ولم يكونوا يعيرون أي اهتمام للطاهرين أو الكواسر أو لليمنيين، وكان أكثر هؤلاء نفوذا أشراف جيزان حكام عسير الجنوبية، والفقيه أبو بكر بن مقبول حاكم لحج، وزعيم أسرة العامود التي كانت مدينة البيضاء معقلاً لهم، وفي مهرة وظفار كانت السيطرة للسلاطين المحليين وأحياناً لأعيان الكواسر أو لحكام عُمان[١].

أن هذا الوصف لطبيعة بلاد اليمن يوضح لنا صورة جلية من صور التجزوء والتفكك والانقسام، فضلاً عن صورة التناحر والصراع المتنوع سياسياً ومذهبياً وعسكرياً، وبلاد بهذه الأوصاف والأحوال سرعان ما ينشب فيها القتال والحرب الداخلية، فضلاً عن أنها ستكون عرضة لغزو أو اجتياح أو احتلال أجنبي بكل سهولة، وبدون مقاومة أو مجابهة؛ سبب تفكيك جبهتها الداخلية وافتقادها للوحدة السياسية، وعدم تآلف وانسجام مكوناتها القبلية والدينية والسياسية، وهذا ما سنوضح نتائجه من خلال الحملة العسكرية العثمانية موضوع بحثنا هذا.

---

(١) نيقولاى، إيفانوف. الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ -١٥٧٤، نقله إلى العربية: يوسف عطا الله، راجعه وقدم له: د.مسعود ضاهر، سلسلة تاريخ المشرق العربي الحديث (٣)، منشورات دار الفارابي، (بيروت، ١٩٨٨م)، ص ١١٩ -١٢٠.

وكان من أبرز ملامح ضعف الجبهة الداخلية في بلاد اليمن، تنازع شيوخ القبائل على السلطة، فعقدوا الاتفاقات المؤقتة والهشة بين الأطراف والجماعات المتصارعة، ولم يتخذوا في الواقع أي تدبير للمواجهة المشتركة ضد البرتغاليين، فضلاً عن أن مصالحهم العائلية الوراثية كانت كثيرا ما تقدم على مصالح مكافحة التوسع البرتغالي؛ لذلك كان البرتغاليون يطمعون في السيطرة على هذه البلاد المهمة، ذات الموقع الاستراتيجي المهم، مستغلين حالة الانقسام والصراع بين القوى المحلية التي توزعت على حكمها وإدارتها.

وعندما وصل نفوذ العثمانيين على البحر الأحمر، بعد سيطرتهم على مصر، زحفت قواتهم نحو جنوب العراق، بعد انتصارها على الصفويين؛ لذلك خشي البرتغاليون أن يمتد نفوذ العثمانيين إلى الإحساء والمناطق القريبة من مدخل الخليج العربي، خصوصاً وأن القبائل العربية في تلك المناطق لم تكن راضية عن وجود البرتغاليين في الخليج العربي،لذلك سارع البرتغاليون إلى غزو البحرين وانتزاعها من سيطرة الشيخ مقرن بن زامل الجبوري، شيخ الجبور في الأحساء ، وكان الشيخ مقرن قد أعلن تبعية البحرين والقطيف للأحساء، وامتنع عن دفع الضريبة السنوية عنهما إلى ملك هرمز، الذي كان يسلمها بدوره إلى البرتغاليين، فاتخذ البرتغاليون من ذلك حجة لهذا الغزو، وبسيطرتهم على البحرين ضمنوا (البرتغاليون) موقعاً وسطاً في الخليج العربي، يطلون منه على الساحل العربي الذي يخشونه، وعلى حركة الملاحة في الخليج العربي[1].

وهكذا يتضح لنا أن تهديداً خارجياً أجنبياً ظهر على الساحة السياسية العربية، متمثلاً بالوجود البرتغالي الذي كان يرمي إلى السيطرة علي المداخل العربية البحرية الإستراتيجية في الخليج العربي والبحر الأحمر؛ للسيطرة على طرق الملاحة البحرية التجارية، ولتأمين مصالحهم السياسية والتجارية، وهذا يعني أن بلاد اليمن وموانئها المطلة على البحر الأحمر، ستكون ضمن مطامع البرتغال، مما يؤثر سلباً على استقرارها ويؤدي إلى تباين المواقف السياسية للقوى المحلية فيها، تجاه هذا الوجود الأجنبي الأوروبي المتمثل بالبرتغاليين، وما يترتب عليه من انعكاسات وتأثيرات سلبية على أوضاعها الداخلية.

كان الطاهريون يمثلون القوة الرئيسية المسيطرة على جنوب شبه الجزيرة العربية، لكنهم كانوا يتهربون من أية مشاركة نشيطة في الجهاد المقدس، وعندما تحرك أسطول المماليك بقيادة حسين الكردي نحو شاطئ الهند في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٥١٥م، رفض سلطان الطاهرين عامر و(الثاني) بن عبد الوهاب (٨٩٥ – ٩٢٣هـ / ١٤٨٩ – ١٥١٧م) تقديم الموانئ أو القوى البشرية والتموين الغذائي للأسطول، منتهكاً بذلك كل التزامات التحالف مع المماليك، وقد أدت خيانة السلطان عامر الطاهري إلى إرباك مخططات المماليك، فكان من أبرز نتائجها: تأجيل الحملة على الهند، وظل أسطول المماليك راسياً عند شواطئ جزيرة قمران في البحر الأحمر لمدة ثمانية أشهر، منشغلاً ببناء التحصينات الدفاعية، وبدأت الوفود والرسل تتقاطر إلى معسكر المماليك هنالك من المناطق والقوى المعارضة بمن فيهم الزيدية؛ للتعبير عن استنكارها لموقف عامر الثاني ومطالبة حسين الكردي بتحرير اليمن من استبداد الطاهرين[2].

(1) حسن صالح شهاب، عدن فرضة اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، الطبعة الأولى، (صنعاء، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م)، ص ٢٢١.

(2) عبد الحميد البطريق، من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ – ١٨٤٠، (القاهرة، ١٩٦٩م)، ص ٢١، إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية ص١٢٠ – ١٢١، راجع أيضا: محمود كامل المحامي، اليمن شماله وجنوبه، تاريخه وعلاقاته الدولية، دار بيروت للطباعة والنشر، (بيروت، ١٩٦٨)، ص ١٩٦-١٩٧.

بعد أن ضمن جيش حسين الكردي المؤلف من ستة آلاف رجال، تأييد إمام الزيدية، يحيى شرف الدين وفقيه لحج أبو بكر بن مقبول وشريف جيزان عز الدين بن أحمد، شن هجوماً على جيش عامر الثاني، وكان المماليك يتمتعون بتفوق عسكري غير محدد خاصة وأنهم كانوا يملكون أسلحة نارية لم يكن جنوب شبه الجزيرة العربية يعرفها أبداً؛ لذلك نشرت البنادق والمدافع الرعب بين المقاتلين اليمنيين، وتمكن حسين الكردي دون عناء كبير من تحطيمهم في بضع معارك، وفي يوم ٢٠ حزيران (يونيو) ١٥١٦م، دخل حسين الكردي مدينة زبيد عاصمة البلاد، وانتقلت تهامة اليمنية بأسرها ومخا وتعز إلى أيدي المماليك وحليفهم الشريف عز الدين بن أحمد شريف جيزان[١].

اختبأت فلول القوات الطاهرية في لمناطق الجبلية، وهرب قسم منها جنوباً إلى عدن، فأصبحت هذه النقطة الإستراتيجية المهمة الهدف الأساسي للحملة العسكرية التي شنتها القوات الرئيسية لجيش المماليك سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، ففي ٢ آب (أغسطس) أصبح أسطول حسين الكردي وقواته البرية على مقربة من مدينة عدن، وعلى الرغم من القصف العنيف الذي تعرضت له مدينة عدن من البر والبحر، فضلاً عن ضخامة عدد الضحايا والدمار الواسع، تمكن عامر بن عبد الوهاب من الدفاع عن المدينة، بمساعدة قوات شقيقه عبد الملك، التي وصلت لنجدته في الوقت المناسب، وفي ١٠ آب من تلك السنة رفع المماليك الحصار من عدن وعادوا إلى القواعد التي انطلقوا منها.

في تلك الأثناء حصل تغيير جذري على الوضع في جنوب شبه الجزيرة العربية بعد أن تكبد المماليك هزيمة ساحقة في ضواحي حلب وقتل سلطانهم قانصوه الغوري في مرج دابق، وجرجرت فلول قوات المماليك المهزومة أذيالها إلى القاهرة، وأخلى حسين الكردي بلاد اليمن، بعد أن ترك حامية صغيرة في مدينة زبيد، فقاد قواته المنسحبة إلى جدة على مقربة من مصر، وما كادت هذه القوات تخرج من اليمن حتى ظهرت السفن البرتغالية في البحر العربي، بقيادة: لوبو سواريش.

في شهر آذار (مارس) ١٥١٧م، اقتربت القوات البرتغالية من مدينة عدن، ولم يبد السلطان عامر عبد الوهاب بن داود أية مقاومة تُذكر، بل أنه قَدَّم مفتاح المدينة إلى الأميرال البرتغالي وأعلن اعترافه بسيادة العرش البرتغالي، لكن الأميرال لوبو سواريش البرتغالي –لحسن حظ ابن داود– تكبد الهزائم المؤثرة الواحدة تلو الأخرى، وفقد في البحر الأحمر قسماً كبيراً من جنوده وأسطوله؛ لذلك عاد إلى الهند خاوي اليدين وعليه أُخليت عدن طوعاً؛ لذلك استغل عامر بن داود هذه الفرصة ليؤسس في جنوب اليمن إمارة طاهرية مستقلة دامت حتى سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م، وضمت –فضلاً عن عدن– مناطق لحج والشيخ عثمان[٢].

من جهة أخرى تمكن المماليك من حماية مواقعهم والاحتفاظ بها في زبيد، فاستغل عاملهم الأمير (بارسباي) تأييد السكان المحليين له، وتشجيع الشريف عز الدين بن أحمد شريف جيزان في عسير، فركز إدارة البلاد، وعلى الرغم من جلاء قسم كبير من فيلق حملة المماليك العسكرية، لكن بارسباي استطاع مواجهة الطاهرين بنجاح، وفي ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، وبعد احتلال السلطان سليم الأول لمصر، عاد من جدة إلى زبيد معظم المماليك الذي رحلوا

---

[١] عن حملة حسين الكردي، ينظر: الديبع، عبد الرحمن بن على، (ت:٩٤٤هـ/١٥٣٧م)، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، القسم الثاني، حققه وعلق عليه: محمد بن علي الأكوع الحوالي. مطبعة السعادة، (القاهرة، د.ت)، ص٢٢٥–٢٢٩، الفضل المزيد على بغية المستفيد أخبار زبيد، دراسة وتحقيق: د.محمد عيسى صالحية، الطبعة الأولى، (الكويت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٢٧٧–٢٨٣، احمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، الطبعة الأولى، مطبعة السنة المحمدية، (القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م)، ص ٢٣٦–٢٧٣، إيفانوف الفتح العثماني على الأقطار العربية، ص ١٢١.

[٢] إيفانوف، الفتح العثماني، ص ١٢١–١٢٢.

قبلاً مع حسين الكردي، هرباً من مطاردة السلطة الجدية، وبمساعدتهم تمكن الأمير بارسباي من صد هجوم قوات عامر الثاني، وفي ١٥ أيار (مايو) سنة ١٥١٧م، وفي معركة قرب صنعاء الحق به هزيمة ساحقة وقتل عاماً الثاني مع أخيه عبد الملك أثناء دفاعهما عن المدينة، فانتهى بذلك وجود سلطنة الطاهريين[١].

كان هدفنا من هذا الاستهلال التاريخي بيان طبيعة الصراع السياسي والمذهبي القائم في بلاد اليمن مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وهو صراع داخلي وصراع خارجي مع القوي الجديدة التي ظهرت في جنوب شبه الجزيرة العربية –ومداخلها الرئيسية في البحر الأحمر والبحر العربي والخليج العربي، متمثلة في المماليك والعثمانيين والبرتغاليين ، ذلك الصراع الذي انعكس على مدينة عدن خلال حكم الطاهرين عليها، ثم تكرار واستمرار ذلك الصراع وانتهائه بالحملة العسكرية العثمانية عليها سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٢٨م –كما سنوضح في بحثنا هذا.

(٢) ظروف ودوافع الحملة العثمانية على عدن سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م:

على الرغم من أن الدولة العثمانية كانت من الدول البحرية الكبيرة، إلا أنها بقيت بعد سيطرتها على مصر، مشغولة بحروبها مع أوروبا وتقوية بحريتها في البحر المتوسط، فضلاً عن حروبها مع الدولة الصفوية، بعيدة عن الاهتمام بخطر الوجود البرتغالي في خليج عدن والبحر الأحمر؛ لذلك كانت تعتمد في الدفاع البحري في البحر الأحمر إلى سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٦م، على ما آل إليها من سفن المماليك بعد استيلائها على مصر، وهي سفن قليلة بقيت من حملة المماليك الثانية، التي جهرت في عهد قانصوه الغوري.

كانت أول حملة بحرية عثمانية تجهز في مسفن السويس، تلك الحملة التي وصلت إلى المياه اليمنية سنة ٩٣٢هـ، تحت إمرة خير الدين حمزة وسلمان الرئيس قائد الأسطول، وانتهت بلجوء معظم سفنها بقيادة مصطفى بيرم إلى الهند[٢].

اتخذت المقاومة العربية ضد البرتغاليين حرباً بحرية شعواء، اشتركت فيها سفن مهرة وحضر موت وغيرهما من القوى البحرية، وتم السطو على السفن البرتغالية التي كانت تتحطم على مقربة من الشاطئ، فضلاً عن أن قراصنة مهرة وغيرهم كانوا يسطون على سفن الفرنجة والسفن الأخرى المعادية، فأصبح الموقف بالغ الارتباك والخطر في إطار حرب بحرية شاملة وعنيفة.

لقد جرت أكثر الاشتباكات على اليابسة وبصورة عنيفة، ولم يفرق البرتغاليون أبدا بين السكان المسالمين والقوات المسلحة، وشارك معظم السلطان في المعارك، فتكبد المسلمون خسائر فادحة، وكان البرتغاليون يلبسون الدروع ويحسنون استخدام السيف والبندقة، فلا يصابون إلا برضوض بسيطة، ولم يتكبدوا خسائر مؤثرة إلا في المناطق التي ترابط فيها الحاميات العثمانية المزودة بالأسلحة النارية، وكانت المقاومة الأكثر عنفاً واضحاً في مدن حضر موت، حيث تمكنت قوت الشحر بمساعدة الأهالي من صد هجمات الأسطول البرتغالي مرات عديدة، وتكبد البرتغاليون هزيمتين قاسيتين، الأولى سنة ١٥٢٣م عندما هاجموا مدينة الشحر، فاستبسل أهلها في الدفاع عنها، واستمر القتال ثلاثة أيام ٢٣–٢٥ شباط (فبراير)، أما الهزيمة الأخرى فكانت في معركة نشبت يوم رمضان سنة ٩٤٢هـ / ٢٧ شباط (فبراير) ١٥٣٥م، تم خلالها تحطيم إنزال برتغالي معادي شر تحطيم من قبلا قوات بدر الثالث، واستولى مقاتليه على أربع عشر سفينة حربية

---

[١] ينظر هذه الحوادث تفصيلاً: الديبع قرة العيون ٢/٢٣٠–٢٣٢، الفضل المزيد ص ٢٨٣–٢٨٨، محمود كامل المحامى، اليمن شماله وجنوبه، ص ٢٠١– ٢٠٢، شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص ٢٣٨– ٢٣٩، إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ص ١٢٢.

[٢] حسن صالح شهاب، عدن فرصة اليمن، ص ٢٢١–٢٢٢.

برتغالية وقتلوا عدداً كبيراً من الإفرنج، واخذوا سبعين أسيراً، ولم تتمكن إلا سفينة برتغالية واحدة على ظهرها مائة جندي من الإفلات والتوغل بعيداً في عرض البحر، وتم توزيع الأسرى على أفراد القوات بصفتهم غنائم حرب، كما قدم بعضهم هدية إلى حكام الدول الصديقة بن فهيم السلطان العثماني سليم العظيم[١].

أما الموقف في عدن فكان موقفاً غريباً من الوجود البرتغالي بصورة خاصة، فقد اتخذ حاكم عدن الطاهري عامر بن داود موقفاً مزدوجاً، إذ تظاهر بتأييد القراصنة والتجار المسلمين في آن واحد، وقام رجاله بالاستيلاء على السفن البرتغالية فسلبوا البحارة البرتغاليين وعذبوهم، وعمل عامر بن داود بكل مهارة على تجنب أية مواجهة مع قوات الأسطول البرتغالي النظامية، بل أنه سمح للأسطول البرتغالي بدخول مرفأ عدن والتزود بالماء والمواد الغذائية.

من الواضح أن الاستسلام والاتفاق المعقود في آذار (مارس) سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م –المشار إليه سابقا–[٢]، لم يكن وليد صدفة، ففي آذار (مارس) ١٥٢٤م وقع حاكم عدن اتفاقاً جديداً تضمن اعترافه بسيادة البرتغال، صحيح أن فاسكو دي غاما لم يصادق على الاتفاق، إلا أن الموظفين البرتغاليين خلال انتظارهم الرد تصرفوا وفقا للوثيقة الموقعة الجديدة فبسطوا رقابتهم على تجارة الأمير الطاهري ومداخيله، ورابطت سفينة تجارية برتغالية بصورة دائمة في ميناء عدن، فبعثت الرعب في المدينة بأكملها.

وفي شباط (فبراير) ١٥٣٠م، عقد عامر بن داود اتفاقية أخرى مع البرتغال اعترفت فيها للمرة الثالثة بتبعيته للعرش البرتغالي، ملتزماً بدفع الضريبة، ولقاء ذلك مُنحت سفن عدن التجارية حرية الملاحة، بشرط عدم نقلها عبر القوافل المكية، أي عدم نقل التوابل وغيرها من البضائع إلى السلطنة العثمانية[٣].

مما سبق ذكره يتضح لنا جلياً أن سلطان عدن الطاهري عامر بن داود كان صنيعة البرتغاليين، من خلال الاتفاقيات المتتالية التي عقدت بينه وبينهم ، والتي اعترفت فيها لثلاث مرات بتبعيته للعرش البرتغالي، كما أنه فتح أبواب مدينة عدن وميناءها أمامهم، ولم يدخل معهم في أي مواجهة عسكرية مسلحة ضدهم، بل كان مستجيباً لمطالبهم فسمح للأسطول البرتغالي بدخول مرفأ عدن، للتزويد بالماء والمواد الغذائية –كما ذكرنا أعلاه– ولا شك أن العثمانيين كانوا على علم ودراية بتصرفات عامر بن داود هذه؛ لذا أضمروا له العداء وأنهم سوف يعاقبوه وينتقموا منه عند حلول الفرصة المؤاتية مستقبلاً.

قررت الدولة العثمانية بناء أسطول بحري ضخم، لمواجهة الخطر البرتغالي المحدق بسواحل شبه الجزيرة العربية والموانئ الهندية، ولتحقيق هذه الغاية عقد السلطان سليمان الأول القانوني اتفاق سلام مع أوربا، وفي الوقت نفسه أمر بكلر بك مصر بالإسراع في بناء الأسطول والبدء بالاستعداد المباشر للقيام بحملة على الهند، وانتشرت في السويس حركة البناء، فتوافد إليها العمال والبحارة من كل حدب وصوب، وفي الإسكندرية ألقي القبض على بضع مئات من البحارة القادمين من البندقية، وأرسلوا للعمل في أحواض السفن في السويس، أما المياه والمواد الغذائية فكانت تنقل إليها من القاهرة، وكانت أخشاب السفن والأعتدة والتجهيزات وما إليها تنقل من كيليكيا بطريق البحر إلي الإسكندرية، ومنها إلي القاهرة بواسطة نهر النيل، ومن هنالك إلى السويس على ظهور الجمال، وأشرف على إدارة الأعمال أحد أبرز

---

[١] الشاطرى، محمد بن أحمد بن عمر. أدوار التاريخ الحضرمي، منشورات عالم المعرفة، الطبعة الثانية، (جدة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م)، ص ٢٣٧–٢٣٨، إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ص ١٢٨–١٢٩.

[٢] راجع إحالة رقم (٥) وهامشها من بحثنا هذا.

[٣] إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ص ١٢٩.

مهندسي جنوة، كما تولى أمهر الصُنّاع مهمة صب المدفعية، غير أن أكثر ما أثار قلق البرتغاليين يتمثل في صنع تسعة مدافع عملاقة، بإمكانها إطلاق قذائف تزن الواحدة منها مائة كيلو غرام، ومما أثار الدهشة ليس مجرد صب هذه المدفعية، بل مسألة نقلها عبر برزخ السويس[١].

يتضح لنا مما سبق ذكره أن العثمانيين كانوا مصممين على مواجهة البرتغاليين وصد هجومهم على الموانئ العربية والإسلامية، وكبح جماح غرورهم انطلاقاً من مبدأ الجهاد الإسلامي المقدس، لمحاربة أعداء الإسلام من الكفار الإفرنج، وإحلال السيادة الإسلامية محل السيادة الأجنبية الأوربية، وكانت الخطة العثمانية تتضمن توجه الأسطول العثماني من ميناء السويس نحو ميناء جدة ومنه موانئ اليمن على البحر الأحمر ومنها عدن، ومن هنالك إلى البحر العربي فالمحيط الهندي؛ لطرد البرتغاليين وتحطيم أسطولهم وتدمير سفنهم الراسية في الموانئ العربية أو الموانئ الهندية، القضاء على وجودهم في هذه المياه، بسيطرة الأسطول العثماني وفرض سيادته في هذه المنطقة.

اختلفت روايات المصادر والمراجع التاريخية التي تيسر لنا الإطلاع عليها، بخصوص إعداد الحملة وعدد سفنها وكوادرها وقيادتها، وطريق مسيرها وأبرز الحوادث التي رافقت سيرها وتوجهها نحو مدينة عدن، فضلاً عما رافق وصولها إلى ميناء عدن من حوادث ووقائع، تباينت حولها آراء هؤلاء المؤرخين، الذين كان أغلبهم من مؤرخي اليمن وعلى وجه الخصوص المؤرخون الحضارمة القدامى والمحدثين منهم.

عقد النهروالي[٢] فصلاً تحت عنوان: (في ذكر توجه سليمان باشا إلى عدن وقتله لصاحب عدن غدراً، وأخذها منه جبراً وقهراً)، وذكر أن سليمان باشا، وهو قائد الحملة البحرية العثمانية نحو الهند، لما توجه من جدة قاصداً المرور بعدن، كان حاكمها يومذاك عامر بن داود، وهو بقية بني طاهر ملوك اليمن سابقاً، ولم يبق في يده من مملكة أسلافه بني طاهر إلا قلعة عدن من سائر ممالك اليمن، ووصفه بقوله: "وكان شاباً كريماً، جواداً حليماً مُحسِناً إلى الناس، باسطاً لهم وجه اللطف والإيناس، يعظم الشرع الشريف ولا يخرج عن حكمه، ويوقر من وَفِدَ إليه من العلماء ويكرمه لعلمه، إلى غير ذلك من الخصال الجميلة، والخِلالَ الحسنة الجليلة، الشهدة له بكرم أصله، وجودة فضله ووصله".

ولما بلغ السلطان عامر بن داود وصول سليمان باشا، بقصد الجهاد في سبيل الله وقطع غائلة الإفرنج عن الإضرار بعباد الله ، فتح له بابا مدينة عدن، وتوجه هو ووزيره للسلام عليه، إلى الغراب (المركب) الذي هو فيه، وبمجرد أن رأى سليمان باشا باب عدن قد فتح، أمر عسكره بدخول عدن وأخذها، ولما وصل السلطان عامر بن داود ألبسه سليمان باشا ومن معه خلعاً، ثم أمر بصلبهم على الصاري في الغراب الذي هو فيه، ونهب عسكره داره، وشرعوا في نهب البلد، فأمر منادياً يمنعهم من نهب الناس، ونادي في البلاد بالأمان، وأناب عنه في عدن: بهرام بك، سنجقاً كبيراً، ونائباً أميراً، فضبط البلاد بذلك، وكتب إلى الأبواب السلطانية، أنه أخذ عدن قهراً، وأنه افتتحها قسراً، وكتب على باب عدن أنه افتتح هذه البلاد في سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م، وتوجه سليمان باشا إلى الهند لقتال الإفرنج الذين في الديو.

نستشف من رواية النهروالي –وهو صنيعة العثمانيين–أن سليمان باشا قائد الحملة العثمانية البحرية، قتل سلطان عدن عامر بن داود غدراً وظلماً، وانه دخل عدن وأمر عسكره بنهبها، وكتب إلى السلطان العثماني أنه افتتح هذه البلاد،

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٣١.

(٢) قطب الدين محمد بن أحمد، (ت: ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م). البرق اليماني في الفتح العثماني، منشورات المدينة، الطبعة الثانية، بيروت، (١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م)، ص ٨٠–٨١، راجع أيضا: محيرز، المرحوم عبد الله، العقبة. منشورات وزارة الثقافة، مؤسسة ١٤ أكتوبر، (عدن، د.ت)، ص ١٧٣.

فضلاً عن أن النهروالي مدح عامر بن داود وأشاد بجملة من خصاله الحميدة، وأبرزها: الكرم والجود والحلم والإحسان إلى الناس، ووصف ما فعله سليمان باشا بأنه من أعمال الغدر الذي شاع ذكره ووصل خبره إلى موانئ الهند. مما أسفر عنه ردود فعل ضده، أدت إلى نفرة خواطر الناس منه -كما سنوضح.

أما رواية الموزعي[1]، وهو أحد صنائع ومؤيدي الدولة العثمانية، فقد ورد فيها أن الأوضاع الداخلية في اليمن كانت غير مستقرة، ولم ينتظم حالها، فهنالك دماء تُسفَك ومحارم تُهتَك وأموال تنهب ومدامع تُسكَب، فلما علم السلطان سليمان القانوني بهذه الأحوال وحالة الاختلال التي عمت الديار اليمنية، وجه سليمان باشا بجيوش عظيمة وعُدد جسيمة إلى الهند؛ لحرب الإفرنج البرتغال إخوان الكفر والضلال، وأمر قائد الحملة أن يعرج على ديار اليمن؛ ليصلح منها ما فسد ويطفئ نار الفتن، لأن السلطان عامر بن داود آخر ملوك بني طاهر في اليمن، قد راسل الأبواب العلية (السلطان العثماني) مخبراً بتغلب الإمام شرف الدين (الأمير المطهر بن يحيى شرف الدين) وولده مطهر، على أكثر الديار اليمنية، وطلب من السلطان المعظم سليمان خان (القانوني) أن يمده بعساكر سلطانية لمحاربة هؤلاء المخالفين في اليمن، مع بذل الطاعة للسلطان سليمان، ودخوله تحت نظر سلطة آل عثمان.

وأضاف الموزعي أن القائد سليمان باشا توجه بعساكره نحو عدن، فهيأ له السلطان عامر بن داود حاكمها، الضيافة وسائر أنواع الإتحاف والإكرام، وكان الإمام شرف الدين وولده مطهر، قد حاولا قتل السلطان عامر بن داود، فلم يتمكن أحد منهما ولم يظفرا، فلما بلغهما وصول الوزير سليمان باشا إلى عدن، راسلاه وكتبا إليه أن السلطان عامر بن داود مداهن للإفرنج، وأنه يريد إدخالهم إلى عدن ونحو ذلك من الكلام الذي يتضمن الإغراء والتحريض عليه، فكان لكلامهما وقع في لقب سليمان باشا أشد موقع؛ لذلك أرسل القائد سليمان باشا إلى السلطان عامر بن داود -عند وصوله إلى عدن – أ نيصل إليه المركب، أي أن يقابله على مركبه في البحر، ليتفاوضا، فخرج إليه السلطان عامر بنفسه إلى المركب مع جماعة من أصحابه بالهدية الوافرة، والتحف الفاخرة، ولم يشعر السلطان عامر بما كان في نفس القائد سليمان باشا من إغراء وتحريض الإمام شرف الدين وولده مطهر ضده، وما نسبا إليه وارتكبا عليه من الإثم العظيم الأكبر، فلما وصل السلطان عامر إلى حضرة سليمان باشا، كان الأخير قد استشاط غضباً عليه، وأطلعه على كتاب الإمام شرف الدين وطلب منه عدم المناقشة والرد عليه؛ لذلك بادر سليمان باشا فصلب السلطان عامر على صاري المركب، وقتل جماعته الذين جاؤوا معه، وشنع في قتلهم، وقال الموزعي: "وما ذاك من الإمام شرف الدين وولده مطهر، إلا من قبيل العداوة والبغضاء فحاولا في ذلك قتله، ليتمكنا من أخذ اليمن جملة، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً، وأمر الله قدرا مقدورا".

وبعد هذه النهاية المأسوية للسلطان عامر بن داود آخر حكام بني طاهر في اليمن، استولى سليمان باشا على عدن، وذلك سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م، ثم أناب سليمان باشا على عدن رجلاً من جماعته، يسمى: (بهرام) وتوجه هو إلى الهند لمحاربة الإفرنج.

نستشف من رواية الموزعي -وهو من الموالين للدولة العثمانية- أن ما قام به القائد سليمان الباشا من عملية قتل السلطان عامر بن داود وأصحابه على المركب الذي كان فيه في البحر، قد تمت بتحريض من الإمام شرف الدين وولده المطَّهَر ولم يدقق ويحقق سليمان باشا في الأمر، بل تسرع بقتل السلطان عامر وأصحابه؛ بسبب الصراعات السياسية

---

[1] الموزعي، القاضي شمس الدين عبد الصمد بن إسماعيل بن عبد الصمد، (من علماء القرن الحادي عشر الهجري /السابع عشر الميلادي). دخول العثمانيين الأول إلى اليمن، المسمى: الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، منشورات المدينة، الطبعة الأولى، (بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م)، ص ٢٤-٢٥، راجع أيضا: محيرز. العقبة، ص ١٧٤-١٧٥.

والمذهبية التي كانت تعصف ببلاد اليمن في تلك المدة، وهذا يعني أن سليمان باشا انتصر للإمام شرف الدين وولده المطهر وهم من الزيدية، على السلطان عامر بن داود وأصحابه الذين كانوا يحكمون عدن وهم على المذهب السني الشافعي.

وهكذا فإن ما ذكره النهروالي والموزعي، هما صنيعتي الدولة العثمانية ومؤيديها، نستشف مما ورد من مؤلفيها أن القائد سليمان باشا قد تسرع وتصرف تصرفا غير مناسب تجاه السلطان عامر بن داود، ولا شك أن لهذا التصرف نتائجه الوخيمة على سمعة وسياسة الدولة العثمانية، فضلاً عن نفور المسلمين وعدم تعاونهم معه في تحقيق أهدافه الرامية إلى حرب الإفرنج البرتغاليين، وإنهاء وجودهم في المناطق العربية والإسلامية، المتمثل بسيطرتهم البحرية على المياه والسواحل العربية والإسلامية في جنوب شبه الجزيرة العربية والهند.

ولعل ما أقدم عليه القائد سليمان باشا، يرجع إلى طبيعة العلاقة بين الطاهريين والبرتغاليين في عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب بن داود الطاهري (٨٩٥-٩٢٣هـ / ١٤٨٩-١٥١٧م) الذي انتهت حياته بالقتل في أطراف مدينة صنعاء، وكيف انه اعترف بتبعيته للسيادة البرتغالية ثلاث مرات متتالية -كما ذكرنا-[1] ولعل هذا الأمر هو الذي استغله الإمام شرف الدين الزيدي وولده المطهر، للإيقاع بالسلطان عامر بن داود، بسبب موقف جده وسلفه السابق السلطان عامر (الثاني) بن عبد الوهاب الطاهري، الملقب بـ: الظافر، الذي قتل مع أخيه عبد الملك -كما ذكرنا- سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، أي في عهد السلطان سليمان العثماني سليم الأول، فكان هذه الأمر مثيراً لغضب وانتقام القائد سليمان باشا، هذه فضلاً عن تعاون السلطان عامر بن داود نفسه مع البرتغاليين حيث فتح ميناء عدن أمامهم وقدم لهم وسائل العون والمساعدة المتعددة من الماء والمواد الغذائية -كما ذكرنا.

أما المؤرخون اليمنيون -وخصوصاً الحضارمة منهم-فكانت لديهم آراء ووجهات نظر أخرى متباينة، حول حملة سليمان باشا وقتله سلطان عدن عامر بن داود واستيلائه على المدينة ونهبها من قبل جنوده سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م، قبل انسحابه إلى الهند، وترك نائبه بهرام بك عليها لإدارتها وتحسين وإصلاح أوضاعها.

ولعل في رواية بافقيه الشحري[2] معلومات إضافية جديدة، فيها تحديد تاريخ وصول حملة سليمان باشا، الذي سماه: سليمان الطواشي إلى عدن يوم ٨ من شهر ربيع الأول سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م، (نقلاً عن وصول مكتب (بريد) من عدن بمراسيم من الباشا سليمان الطواشي إلى صاحب الشحر، وكان وصول هذا البريد بعد عصر يوم الخميس ٢٦ شهر ربيع الأول)، وأضاف بافقيه في روايته عن بريد مكتب عدن أن عامر بن داود صاحب عدن دخل من لحج إلى عدن، وأضاف محدداً أسماء أصحاب عامر الذين وصلوا معه إلى سليمان باشا وصعدوا جميعاً إلى المركب الذي كان مقيماً فيه البحر،: أن أميره الخلي ، والقاضي عبد الرحمن عمر بن بامخرمة والشريف محمد بن علوي العيدروس (شيخ جده الشيخ أبي بكر)، دخلوا إلى البحر لمواجهة الباشا، وانه أكرمهم وخلع عليهم، وهذا يعني أن ثلاثة رجال من أصحاب السلطان عامر بن داود قد رافقوه في مقابلته لسليمان باشا قائد الحملة البحرية العثمانية المتجهة إلى الهند، التي توقفت في طريقها بمدينة عدن، وأن المقابلة قد تمت على غراب (مركب) سليمان باشا الذي كان راسياً في البحر

---

[1] راجع: الإحالات: ٣، ٦، ٩-١٠ وهوامشها في بحثنا هذا.

[2] محمد بن عمير الطيب، (توفي بعد سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠- ١٦٣١م). تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، الطبعة الأولى، (صنعاء، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م)، ص ٢٥٣-٢٥٤.

قبالة مدينة عدن، في حين ذكرت مصادر أخرى أن عدد مرافقي السلطان كانوا ستة أشخاص -كما سنوضح -دون ذكر أسمائهم.

أضافت رواية بافقيه أن الباشا سليمان أصدر أوامره إلى جنده أن ينزلوا إلى مدينة عدن وينتشروا فيها، قبل إقدامه على قتل السلطان عامر وأصحابه، بعد أن يتأكد من انتشارهم فيها قبل قيامهم بأعمال القتل والنهب والسلب لإرهاب السكان ونشر الخوف والذعر في صفوفهم، فذكر أن عساكر سليمان باشا الطواشي لم تزل طالعة نازلة إلى البلد (عدن) للبيع والشراء والاستقاء وغير ذلك، حتى تكاثروا في البلد وصاروا فيه نحو ثلاثة آلاف أو أكثر، وبعدها أصدر أصحاب سليمان باشا أوامرهم إلى السلطان عامر وأصحابه بالصعود إلى المركب ومقابلته، وفعلاً استجاب عامر لأوامرهم إذ لا قدرة له على الممانعة، وفعلاً صعد هو وأصحابه من خاصته، وكان ذلك في اليوم الثاني لوصول الحملة إلى عدن، أي يوم ٩ من شهر ربيع الأول سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م)، بعدما تم نهب ما في عدن نهباً عظيماً، فلما علم الباشا سليمان بأفعالهم، أمر مناديه أن ينادي بالأمان ويرد ما نهب العسكر، فرجع شيء يسير مما نهب، من الثياب ونحوها وفقط، أما الدراهم (النقود) والحلي فلم يرجح من الجند شيئاً منهم!!

أما السلطان عامر بن داود والجماعة الذين معه قد شنقوا في الغربان (المراكب)، ثم أخرجوا إلى الساحل، وكان السلطان عامر آخر ملوك بني طاهر، وبموته انقضت دولتهم، وأرسل سليمان باشا الكتب إلى الشحر وصنعاء وإلى كل مكان يخبرهم بما فعله في عدن مع السلطان عامر وأصحابه، ثم غادر عدن وكانت الحملة مهيأة للتوجه إلى الهند، وترك في عدن عسكراً قوامه بين ٥٠٠-٦٠٠ رجل، وعليهم أمير رومي (عثماني-تركي) يسمى:بهرام، وهو أول أمير في عدن بني طاهر، وحدد بافقيه تاريخ مغادرة حملة سليمان باشا عدن نحو الهند، يوم ٢٣ من شهر ربيع الأول سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م، في حين أن البريد وصل من هدن إلى صاحب الشحر بخصوص حوادث عدن هذه، يوم ٢٦ ربيع الأول سنة ٩٤٥هـ، كما ذكرنا في بداية رواية بافقيه، أي بعد ثلاثة أيام من مغادرة حملة سليمان باشا عدن نحو الهند[١].

لم يحدد النهروالي وبعده الموزعي ثم بافقيه جهة انطلاق حملة سليمان باشا البحرية نحو عدن، ولا عدد سفن ومراكب الأسطول العثماني المتقدم للسيطرة على مدينة عدن وإخضاعها للعثمانيين، لكن الجديد في وراية بافقيه هو تحديد يوم وصول الحملة إلى عدن حيث رست سفن الأسطول العثماني على سواحلها، فضلاً عن انفراده بذكر ثلاثة أشخاص من مستشاري السلطان عامر بن داود صعدوا معه إلى غراب (مركب) سليمان باشا وتم القضاء عليهم جميعاً من قبله، وهم على ظهر ذلك المركب.

ومن المصادر اليمنية التي تحدثت عن حملة سليمان الطواشي، المؤرخ حسن صالح شهاب[٢]، مشيراً إلى الحملة البحرية الثانية التي انطلقت لمحاربة البرتغاليين في الهند، وقد غادرت الحملة ميناء السويس في شهر محرم سنة٩٤٥هـ / ١٥٣٨م، وكانت حملة ضخمة جداً، إذ بلغ عدد سفنها ثمانين سفينة من مختلف الأنواع، وقيل أن أسطول هذه الحملة مكون من ستين غراباً وثلاثين سفينة، أي ما مجموعه: تسعين غراباً وسفينة، تحمل عشرين ألف جندي بمعداتهم وعتادهم، وكان الهدف من تجهيز الحملة -كما ذكرنا- محاربة البرتغاليين في الهند وتحطيم قواعدهم فيها، وقد أسندت هذه الحملة بقيادة سليمان باشا الطواشي والى مصر، وقيل أن الحملة جهزت خلال مدة قصيرة، معللاً سرعة تجهيزها إلى الأسباب الآتية:

---

[١] راجع أيضا: حسن صالح شهاب، عدن فرضة اليمن، ص ٢٢٣-٢٢٤.

[٢] المرجع نفسه، ص ٢٢٢.

١- تزايد أعمال القرصنة البرتغالية في خليج عدن والبحر الأحمر.

٢- مد البرتغاليين للفرس بالمعونات العسكرية، إثر سقوط بغداد بيد العثمانيين سنة١٥٣٤م.

٣- قتل البرتغاليين للسلطان (بهادر شاه) سلطان الكجرات، بسبب علاقته مع الأتراك وتحريضه لهم على محاربة البرتغاليين في الهند.

أما د. سيد مصطفى سالم[1]، فقد قدم عرضاً علمياً مفصلاً عن حملة سليمان باشا، الذي اقترن بلقب: الخادم، وذكر أن الحملة غادرت ميناء السويس بعد عودة فرحات الصوباشي إلى مصر بقليل، أي في ١٥ محرم سنة٩٤٥هـ / ١٣ حزيران (يونيو) ١٥٣٨م، ومرت الحملة بميناء جدة، ثم تقدمت إلى جزيرة كمران فأقامت أمامها بعض الوقت، وفي أثناء ذلك قام كل من عامر بن داود والإمام شرف الدين الزيدي بالاتصال بسليمان باشا الخادم، ليطلب معاونة الحملة له ضد الآخر، ومن الصعب هنا تحقيق أخبار هذه الاتصالات، فقيل أن عامر بن داود أرسل إلى سليمان باشا يستنصره على الإمام شرف الدين، فبسط سليمان باشا له الجواب وأوهمه بالمساعدة، كما قيل أن الإمام شرف الدين هو الذي اتصل بسليمان باشا لإثارته ضد عامر بن داود؛ للتخلص منه بحجة انه يساعد البرتغاليين، وذلك كي يتمكن الإمام من الاستيلاء على باقي جهات اليمن، وعلى الرغم من هذا كله فمن المؤكد أنه لم يكن لهذه الاتصالات نتائج عملية مباشرة وقتذاك.

واصلت الحملة سيرها نحو عدن، فوصلتها يوم ٧ ربيع الأول سنة ٩٤٥هـ /٣ آب (أغسطس) ١٥٣٨م، واتبع سليمان باشا الخادم أسلوبه التقليدي -وهو أسلوب الغدر- في الاستيلاء على هذا الميناء المهم، وكان عامر بن داود قد أحسن استقبال الحملة عند وصولها إلى ميناء عدن، وفتح أمامها أبواب المدينة؛ كي يحصل الجنود على ما يشاءوا من طعام ومؤن بناء على طلب سليمان باشا، الذي كلف سراً هؤلاء الجنود بقيادة الصوباشي فرحات بالاستيلاء على عدن عقب دخولها مباشرة، وقام الجند بأعمال السلب والنهب حتى نادي القادة العثمانيون بإيقافها قبل أن يستفحل أمرها، وفي الوقت نفسه كان عامر بن داود قد توجه على سفينة سليمان باشا ومعه ستة (لم يرد يذكر أسمائهم) من كبار أتباعه لاستقبال سليمان باشا وإظهار حفاوتهم به، فأحسن سليمان استقبالهم وخلع عليهم؛ وذلك ليشاغلهم حتى إذا علم أن جنوده تم لهم الاستيلاء على مدينة عدن، أمر بشنق عامر بن داود ومن معه على صاري سفينته وتركهم معلقين به لمدة ثلاثة أيام.

يتضح لنا مما ذكره د. سيد مصطفى سالم أن الحملة وما رافقها من حوادث أبرزها: مقتل عامر بن داود سلطان عدن وجماعته، الذين انفرد بتحديد عددهم وهم ستة من كبار أتباعه، تنسجم مع ما ذكرته المصادر السابقة سواء الأجنبية والموالية للعثمانيين، فضلاً عن مؤرخي اليمن من الحضارمة على الخصوص، وهكذا انتهى هذا الأمر بسيطرة العثمانيين على مدينة عدن والقضاء على الحكم الطاهري فيها، بمقتل آخر ملوكها في اليمن السلطان عامر بن داود، وأوضح د.سالم أن استيلاء العثمانيين على عدن ثم بعد خمسة أيام من وصولهم إليها، ولعل ذلك يعني أن الحملة وصلت إلى عدن وتم شنق السلطان عامر وأتباعه في اليوم الثاني، وقد بقيت جثثهم معلقة بعد عملية الشنق ثلاثة أيام، فقدر أن الاستيلاء على المدينة تم خلال هذه الأيام الخمسة وبالتحدد يوم ١٢ربيع الأول سنة ٩٤٥هـ /٨ آب (أغسطس)

---

[1] الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥م، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة الجبلاوي، الطبعة الثالثة، (القاهرة، ١٩٧٨م)، ص ١٦٠-١٦١.

١٥٣٨م، وقام سليمان باشا بتحصين المدينة وشحنها بالمدافع، وتعيين أحد سناجق الحملة، وهو: الأمير بهرام حاكما عليها، وترك معه خمسمائة جندي.

أما المؤرخ الروسي نيقولاي إيفانوف[١]، فقد أوضح سرعة إعداد السفن اللازمة والسلاح منذ مطلع شهر أيار (مايو) ١٥٣٨م -كما ذكرنا- إذ كان الأسطول العثماني على أهبة الاستعداد للتحرك نحو الهند، وتم تجهيز السفن بالصواري والمدفعية في ميناء جدة، وأسندت قيادة الحملة إلى بكلربك مصر سليمان باشا الخادم، وهو شيخ في الثمانين من عمره، لم يُعرف عنه تمتعه بأي مواهب، ووضعت تحت إمرته أكثر من سبعين سفينة حربية، وقرابة مائة سفينة نقل تحمل على متنها عشرين ألفا من البحارة والجنود، بمن فيهم سبعة آلاف انكشاري.

في ١٣ حزيران (يونيو) ١٥٣٨م، تحركت هذه الأرمادا العثمانية باتجاه شواطئ الهند، وفي ٣ آب (أغسطس) دخلت عدن، بعد توقف قصير في جزيرة قمران (تمران) في البحر الأحمر، وبطلب من سليمان باشا الخادم تسلم عامر بن داود المدينة، فوعد بتقديم كل مساعدة للباب العالي (السلطان والدولة العثمانية)، غير أن العثمانيين لم يثقوا به، فقد كانوا على علم بعلاقته مع بالبرتغاليين، وكانوا يعدون عمله نفاقاً يستحق العقاب الشديد، ولم يتأخر العقاب فقد استدعى الأمير عامر إلى سفينة القيادة دون أن يرتاب بشيء، وفور وصوله أرسل إلى المشنقة دون محاكمة، وشنق معه على بوابة باب الساحل اثنان (لم يذكر اسميهما) من أقرب مستشاريه، واعترف سكان عدن بسلطة الباب العالي، واحتل سليمان باشا الخادم المدينة، وحولت الإمارة الطاهرية إلى سنجق عثماني، ورابطت في عدن حامية عثمانية صغيرة.

نستنتج مما ذكره إيڤانوف أن هنالك معلومات جديدة مختلفة بخصوص عدد سفن الأسطول العثماني وعدته، فضلاً عن عدد البحارة والجنود، كما انفرد بتحدد شخصين تم شنقهما مع السلطان عامر بن داود، دون ذكر اسميهما، وهذا العدد وتحديد الأسماء كان موضع خلاف بين الروايات التي تحدثت عن حملة سليمان باشا الخادم، فذكروا أن عدد من شنق مع عامر بن داود كانوا ثلاثة أشخاص وهو رابعهم، وقيل أن عدد عددهم ستة وهو سابعهم، ويلاحظ أن إيڤانوف أطلق على الأسطول العثماني تسمية: الأرمادا العثمانية، وهي تسمية انفرد بها بين المؤرخين القدامى والمحدثين، مما يدلل أن الحملة كانت ضخمة جدا، من خلال كثرة عدد السفن الحربية وسفن النقل التي كانت تحمل على متنها البحارة والجنود، والذين قدر عددهم بحدود عشرين ألفاً، فضلاً عن الأسلحة من المدافع العملاقة والبنادق وعُدَد السلاح المتنوع، كما وصف لنا وصفاً فريداً شخصية قائد الحملة.

لقد عرضنا آراء وروايات عديدة متنوعة ومتباينة لأبرز المؤرخين الذين اهتموا بدراسة تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها مع القوى السياسية التي كانت معاصرة لها، خصوصاً في اليمن والهند، فضلاً عن مؤرخين آخرين اهتموا بدراسة تاريخ هذه الدولة السياسي والعسكري، وتكاد آراء و روايات هؤلاء المؤرخين، والمهتمين بالشأن العثماني عموماً، والحملة العسكرية البحرية العثمانية على عدن خصوصاً، قد كشفت لنا طبيعة التعامل الذي رافق هذه الحملة مع سكان المناطق التي مرت عليها أو توقفت عندها، وانفرد المؤرخ الروسي إيفانوف بوصف شخصية سليمان باشا الخادم، بأنه كان شيخاً كبيراً في الثمانين من عمره، ولا يتمتع بأية مواهب تتلاءم مع مسؤوليته لقيادة حملة عسكرية بحرية خارجية، مكلفة بإنجاز مهام عسكرية مع قوى عسكرية كبرى ذات إمكانيات وخبرة عسكرية مثل قوة البرتغاليين التوسعية.

من جهة أخرى عرضت المصادر كافة طبيعة السلوك الشائن والطريقة التي اتبعها قائد الحملة البحرية سليمان باشا في القضاء على السلطان عامر بن داود سلطان عدن ومستشاريه على متن المركب الذي كان فيه قبالة ساحل عدن، وهي

[١] الفتح العثماني للأقطار العربية، ص ١٣١-١٣٢.

طريقة أثارت استياء واستنكار معظم هؤلاء المؤرخين، فضلاً عن سكان مدينة عدن والعديد من المدن اليمنية، ومدن تواجد المسلمين في الهند، مما كان له آثاره السلبية في نفور سكان هذه المدن جميعاً، من مساعدة القائد سليمان باشا عند توجهه لقتال البرتغاليين في الهند، ففشلت حملته وعاد أدراجه فاشلاً، كما سنوضح عند دراستنا عن تداعيات حملته هذه.

(٣) تداعيات الحملة العسكرية البحرية العثمانية على عدن:

أفرزت حملة سليمان باشا البحرية على عدن عدة تداعيات، من خلال توثيق المصادر المتنوعة لها، وطرح آراء ووجهات نظر متعددة حولها، فأصبحت قصة تداولتها الأقلام بروايات وحكايات متنوعة، يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

١- اختلاف الروايات حول قصة وصول سليمان باشا إلى عدن وبقائه في الغراب (المركب) وكيفية استدعاء السلطان عامر بن داود سلطان عدن، ومن ثم كيفية لقضاء عليه شنقاً على صاري المركب، فضلاً عن الاختلاف حول عدد مرافقيه ومستشاريه الذين تم إعدامهم شنقاً معه، وقد ذكرنا بشيء من التفصيل تلك الروايات وفق تسلسل مؤرخها بدءاً بالنهروالى ثم الموزعي -وهما من صنائع الدولة العثمانية ومؤيديها-، ثم استعرضنا روايات المؤرخين اليمنيين خصوصاً الحضارمة من القدامى والمحدثين، بدءاً من بافقيه الشحرى ومروراً بمؤرخين آخرين بعده، أشهرهم: الشاطري وحسن صالح شهاب وعبد الله محيرز ثم د.سيد مصطفى سالم وهو مؤرخ مصري الجنسية قضى ردحاً طويلاً في اليمن، وخدم تاريخيها خدمة رائعة، وأخيراً المستشرق الروسي نيقولاي إيفانوف[١].

٢- وتأسيساً على ما ذكرناه أعلاه انفرد المرحوم الأستاذ عبد الله محيرز[٢] بإضافة روايتين إلى وراية النهروالي حول حملة سليمان باشا ونهاية عامر بن داود، الأولى: نقل لنا فيها وصف القبطان البندقي (الذي لم يذكر اسمه الصريح) المرافق لحملة سليمان باشا، حول هذه الحادثة، إذ كان شاهد عيان لها: أنه وصل وفد من أربعة أشخاص (لم يذكر أسماؤهم صريحة)،ومعهم بعض المأكولات من المدينة (عدن)، حال وصول أسطول الباشا إليها وقابلهم قبولاً حسناً، وخلع عليهم، وأرسل معهم إلى الشيخ (السلطان) عامر بن داود، برسالة لدعوته وقبول ضيافته في السفينة، وقبل عامر الدعوة مبدياً الولاء والطاعة في سبيل الهدف المشترك، وفي الوقت نفسه وضع سليمان باشا جزءاً من الانكشارية (الجند) على أهبة الاستعداد، وعندما وصل عامر بن داود إليه، أظهر له الود، وخلع عليه وعلي صحبه وتحدثا طويلاً، وفي النهاية سمح له بالمغادرة، لكنه أمر به فشُنق وصحبه على صارية السفينة، ودخلت الانكشارية المدينة وملكتها.

أما الرواية الثالثة فتختلف قليلاً عما سبق، رواها (دون خوان كاسترو) وهو برتغالي مَرَّ بالقرب من عدن بعد ثلاث سنوات من الحادث، روى أن عامر بن داود، أرسل الزاد والمؤونة تقرباً للباشا، فلما قبلها الباشا وثق عامر برضاه وصداقته، فذهب بزيارته في السفينة، إلا أن الباشا اعتقله وحجزه في السفينة ريثما دخلت جنوده لاحتلالها، وأخيراً شنقه على بابا عدن في اليوم التالي، وهنالك قصة رابعة رواها الموزعي أوردناها في بحثنا.

---

[١] راجع: النهروالى. البرق اليماني، ص ٨٠-٨١، الموزعي دخول العثمانيين الأول إلى اليمن. ص ٢٤-٢٦، بافقيه الشحري، تاريخ الشحر، ص ٢٥٣-٢٥٤، الشاطري. أدوار. التاريخ الحضرمي، ص ٢٣٧-٢٣٨، حسن صالح شهاب، عدن فرضة اليمن، ص ٢٢٢-٢٢٤، عبد الله محيرز، العقبة، ص ١٧٣-١٧٤، د. سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص ١٦٠-١٦٢، نيقولاي إيڤانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ص١٣١-١٣٢.

[٢] أ. عبد الله محيرز (المرحوم). العقبة، ص ١٧٤.

٣- أطلقت على سليمان باشا قائد الحملة عدة ألقاب ونعوت، من خلال إطلاعنا على روايات المؤرخين عن حملته البحرية على عدن، أبرزها: سليمان باشا[١]، الباشة سليمان الطواشي، و:الباشة[٢]، سليمان باشا الطواشي[٣]، وسليمان باشا الخادم[٤]، وسمي: بكلر بك مصر سليمان باشا الخادم، وبذلك انفرد إيڤانوف[٥] فذكر أن بكلر بك مصر سليمان باشا الخادم كان شيخاً في الثمانين من عمره، لم يعرف عنه تمتعه بأي مواهب!!. وهذه يؤكد أنه كان في عمر لا يسمح له بتولي هكذا مسؤولية، فضلاً عن كونه لا يتمتع بأي مواهب تؤهله لتولي هكذا قيادة، ولعل تسرعه في القضاء على السلطان عامر بن داود ومستشاريه، كان بسبب مواصفاته غير المناسبة هذه التي لا تسمح بالتدقيق والتحقيق ولفقدانه أسلوب الحوار والتفاهم المناسب.

٤- ذكر النهر والى[٦] وهو صنيعة العثمانيين وأحد مؤرخيها الرسميين، أن سمعة سليمان باشا قائد الحملة العثمانية البحرية للاستيلاء على عدن، قد ساءت كثيراً بعد غدره بسلطان عدن عامر بن داود وقتله، قائلاً: "وشاع غدره بصاحب عدن، في أطراف البلاد، وأكناف العباد، وسبقه خبره هذا الغدر إلى بنادر [مرافئ، موانئ] الهند، ونفرت خواطر الناس منه لذلك، ولما بلغ أهل الهند فعله بعامر، زاد نفورهم منه، وكان ذلك سبباً لعدم مساعدتهم له على الفرتقال.

٥- واجه بهرام باشا القائد التركي الذي عينه سليمان باشا على إدارة عدن، بعد احتلالها وقتل السلطان عامر بن داود، متاعب كثيرة في عدن وما حولها، فقد بدأت القبائل المجاورة تقطع الطرق إلى عدن، من خنفر إلى الرعارع في لحج إلى الصادة قرب رُباك[٧].

ولا نستبعد أن هذه التصرفات تمثل ردود فعل واستنكار ضد العثمانيين؛ بسبب قتلهم سلطان عدن والاستيلاء عليها واستباحتها من قبل الجنود الأتراك، بإضاعة أعمال ومذاهب النهب والسلب والقتل فيها.

٦- تزامن انتقال مقاطعات الطاهريين إلى الإدارة المباشرة للباب العالي (الدولة العثمانية)، مع متابعة عثمنة البلاد التي ظلت مجهولة لدينا، ويمكن القول أن العثمانيين قضوا على المؤسسات الاجتماعية لحكم الطاهريين وألغوا الإقطاع، وغيره من أشكال ملكية الأراضي الإقطاعية، وصادروا ممتلكات العوائل الحاكمة القديمة، وانتقلت الأراضي والجمارك وغيرها من موارد الدخل إلى إدارة الدولة، وتم إعادة النظر في جميع الضرائب القديمة، حيث طبقت المبادئ العثمانية في فرض الضرائب وتقاضي المكوس التي ظلت تتقاضاها السلطات العثمانية في المراسل التي أعقبت تلك المرحلة التاريخية[٨].

٧- ظلت عدن بعد حملة سليمان باشا تعيش أجواءً وظروفاً استثنائية عصيبة، فلم تتقبل الوجود العثماني ولم تتكيف وتتآلف معه، وبعد نحو عشر سنوات من تلك الحملة، قام الشيخ علي بن سليمان الطولقي شيخ الطوالق، ويسمى:

---

[١] النهروالى، البرق اليماني، ص ٨٠؛ الموزعي دخول العثمانيين الأول إلى اليمن. ص ٢٤-٢٦، محيرز، العقبة، ص ١٧٣-١٧٤، حسن صالح شهاب. عدن فرضة اليمن، ص٢٢٣.

[٢] بافقيه الشحري، تاريخ الشحر، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤.

[٣] حسن صالح شهاب. عدن فرضة اليمن، ص٢٢٢، وسماه: الباشا سليمان الطواشي، المرجع نفسه، ص ٢٢٣.

[٤] المرجع نفسه، ص ٢٢٣، ٢٢٨. سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن، ص ١٦٠-١٦١، الفتح العثماني للأقطار العربية، ص١٣٢.

[٥] الفتح العثماني للأقطار العربية، ص١٣١.

[٦] البرق اليماني، ص ٨١، راجع أيضا: محيرز، العقبة، ص ١٧٤.

[٧] محيرز، العقبة، ص ١٧٥.

[٨] إيڤانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ص١٣٣.

علي بن سليمان البدوي[١]، شرقي أبين، بمهاجمة عدن سنة ٩٥٤هـ / ١٥٤٧-١٥٤٨م وتمكن من التغلب على الحامية التركية التي هربت إلى لحج، فتبعها الطولقي، لكنه استشهد في لحج، فخلفه ابنه محمد بن على الطولقي. وفي الوقت الذي كان فيه سليمان الطولقي يقاتل الحامية التركية في عدن، كانت سفينتان برتغاليتان في ميناء عدن، وبعد أيام من استيلاء الطولقي على عدن، وصلت إلى الشحر سفينتان برتغاليتان، تحملان هدية ورسالة إلى حاكم عدن الجديد محمد بن علي الطولقي[٢].

٨- حاول سليمان باشا إخفاء أسلوبه الغادر عن المسئولين العثمانيين في استانبول، فذكر في رسالته إلى السلطان سليمان القانوني، انه اخذ عدن قهراً، وانه افتتحها قسراً، وقد وجد سليمان باشا من يمتدح أسلوبه الغادر في الاستيلاء على عدن بدون حرب، لكن هذه الأسلوب الغادر أفقد العثمانيين ثقة أهالي هذه المناطق، كما ضَيَّعَ عليهم فرصة تكوين جبهة إسلامية في البحار العربية والمحيط الهندي؛ لمواجهة الغزو البرتغالي، وكان لغدر سليمان باشا بالسلطان عامر بن داود، أثر كبير على مسلمي الهند من الحملة العثمانية[٣].

(٤) نتائج الحملة العثمانية البحرية على عدن:

١- فشل الحملة العثمانية بقيادة سليمان باشا المتوجهة إلى الهند، في تحقيق أي هدف يذكر؛ نظراً للظروف الخاصة بها، وفي مقدمتها: ضعف شخصية قائدها، فضلاً عن ضعف جبهة حلفائها الهنود في سلطنة كجرات، أو باقي سلطنات ساحل الهند الغربي؛ لذلك انسحب سليمان باشا وعاد أدراجه إلى السواحل اليمنية.

٢- أشاع سليمان باشا الخادم عند وصوله إلى ميناء الشحر -بعد انسحابه من الهند- في ٤ رجب سنة٩٤٥هـ /٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٣٨م، أنه لم يلق أية معاونة من جانب الهنود في كجرات، وأنهم لم يمدوه بالمؤن اللازمة؛ وذلك لتبرير إسراعه في العودة من الهند، دون تحقيق أي شيء يذكر، والواقع أن غدر سليمان الخادم بالسلطان عامر بن داود في عدن، كان له أثر كبير في نفور المسلمين الهنود من الحملة العثمانية، واتضح ذلك بجلاء في امتناع الخواجة (صفر) عن مقابلة سليمان باشا الخادم في سفينته، وتفضيل أن يتم الاتصال والتعاون بينهما عن طريق الرسل. لذلك فشلت حملته إلى الهند فشلاً ذريعاً وكان ضعف الجبهة الهندية نفسها وتفككها، من العوامل المهمة لذلك الفشل[٤].

٣- لما وصل سليمان باشا إلى السلطان سليمان القانوني في استانبول، قدم له رسائل من أهل وعدن وزبيد والشحر وغيرها، بأنه قد أخذ الهند وقتل الإفرنج، وملك بنادرهم (موانئهم) ولم تبق منهم غير شرذمة ضعيفة مطرودة، وعدد للسلطان جملة بنادر، وأنه وصل بخراجاتها، وأظهر مالاً عظيماً وتحفاً كثيرة، فسكن روع السلطان، لكن كلامه لم يعقبه إلا وصول سفن الإفرنج إلى السويس ورهبة أهل مصر منها، فقال له السلطان: أين كلامك؟ ذكرت أنهم هلكوا، وها هم الآن وصلوا إلى مصر؟! ويقال أن سليمان باشا لما تحقق أنهم هنالك لا محالة، هرب، وقيل: قتل، وكان دخول

---

[١] النهروالى. البرق اليماني، ص ١٠٠-١٠١، راجع أيضا: العبدلي، أحمد بن علي محسن، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، منشورات دار العودة، الطبعة الثانية، (بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)، ص ٩٩.

[٢] النهروالى. البرق اليماني، ص ١٠٠-١٠١، بافقيه الشحري، تاريخ الشحر، ص ٣٢٥-٣٢٧، حسن صالح شهاب. عدن فرضة اليمن، ص ٢٢٨-٢٢٩، العبدلي، هدية الزمن، ص ٩٩.

[٣] النهروالى. البرق اليماني، ص ١٠١، سالم. الفتح العثماني الأول لليمن، ص ١٦٢.

[٤] سالم. الفتح العثماني الأول لليمن، ص ١٦٢-١٦٤، راجع أيضا: حسن صالح شهاب. عدن فرضة اليمن، ص ٢٢٤-٢٢٧،

الإفرنج إلى السويس سنة ٩٧٤هـ / ١٤٥٠[١]، وهذه هي قصة حملة سليمان باشا الطواشي كما روتها المصادر الحضرمية، عمن رافق الحملة من ربابنة حضر موت. وهكذا كانت نهاية هذا الرجل القاسي، الذي لا يتورع من الكذب والخداع، فعند عودته إلى الهند نزل في جدة وقام بتأدية فريضة الحج في مكة، بعدها عاد إلى استانبول ووصلها في ٢٧ شباط (فبراير) سنة ١٥٣٩م (٩٤٦هـ)، أي قبل دخول الإفرنج إلى السويس بعام تقريباً، حيث استُقبِلَ بصفته: فاتح الجزيرة العربية!![٢] .

٤- استيلاء الإمام شرف الدين الزيدي وولده مطهر على جميع حصون اليمن وقلاعه ومدائنه وبقاعه، بسبب عدم وجود من يذبهما (يمنعهما) عن ذلك، بعد قتل عامر بن داود سلطان عدن، وتوجه سليمان باشا الخادم في حملته نحو الهند، لكن عودته إلى اليمن وصل إلى زبيد وقتل طائفة اللوند الذين أظهروا في الأرض الفساد، وعاثوا في البلاد والعباد.

٥- توجه سليمان باشا إلى الأبواب السلطانية (السلطان العثماني في استانبول)، ولما وصل إلى حضرة السلطان سليمان خان القانوني، وجه الأخير اللوم الشديد إليه في إقدامه على قتل السلطان عامر بن داود، وقال له: "ما مثلك من يقدم على قتل السلطان [عامر] فان كان ولابد من قتله، فأرسله إلينا وما قضاه الله فينا كان"[٣] .

٦- أوضح د.سيد مصطفى سالم[٤] أبرز النتائج الخاصة بسيطرة العثمانيين على اليمن، الذي سماه: الفتح، كما سمي كتابه بهذا الاسم[٥]، وأوضح أنه على الرغم من كل الاتهامات التي وجهت إلى سليمان باشا الخادم، ورغم الفشل الذي حاق بأعمال الحملة العثمانية في الهند، فقد نجح العثمانيون في إخضاع السواحل اليمنية للسيطرة العثمانية، من خلال إبراز بعض الأمور الخاصة في هذه الفتح: وهي كالآتي:

أولا- اقتصر الفتح على السواحل اليمنية فقط، من جيزان شمالاً إلى عدن والشحر جنوباً، أما جهات اليمن الداخلية فقد بقيت تحت حكم الزيدية بزعامة الإمام شرف الدين وولده مطهر.

ثانيا-لعل الجديد الذي حققه سليمان باشا في اليمن، يتمثل في انتزاع عدن من أيدي الطاهرين وإخضاعها للسيادة العثمانية، أما دوره في زبيد والمناطق التهامية، فقد اقتصر على نقل السلطة من المماليك، أصحاب النزعات الانفصالية – على الرغم من دخولهم تحت طاعة السلطة العثمانية- إلى أيدي موظفين عثمانيين تعينهم استانبول مباشرة.

ثالثاً- أدت مبالغة سليمان باشا الخادم في تصوير أعماله في اليمن، إلى تشويه الحقائق أمام المسئولين العثمانيين في استانبول، وقد أدى هذا -بدوره- إلى تخبط السياسة العثمانية أحياناً في اليمن، ويتضح ذلك -على سبيل المثال- في أن سليمان باشا أوهم الباب العالي بأن الإمام شرف الدين قد دخل في طاعة العثمانيين؛ لذلك كان الباب العالي يفسر أي اصطدام بين الزيدين والعثمانيين على أنه خروج على السيادة العثمانية، وبالتالي يعمد إلى استعمال العنف في قمع الثورات اليمنية، بدلاً من إتباع الطرق السليمة في حل مشاكل اليمن.

---

(١) حسن صالح شهاب. عدن فرضة اليمن، ص ٢٢٨.

(٢) إيڤانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ص١٣٢

(٣) الموزعى، دخول العثمانيين الأول إلى اليمن، ص ٢٦-٢٧.

(٤) الفتح العثماني الأول لليمن، ص ١٦٨-١٦٩.

(٥) عنوان كتاب د. سيد مصطفي سالم: الفتح العثماني الأول لليمن... راجع هامش رقم (١٨) من بحثنا هذا.

رابعاً- كان فشل حملة سليمان باشا في الهند بداية تغيير واضح في سياسة العثمانيين تجاه الغزو البرتغالي، إذ بدأ العثمانيون بإتباع سياسة تتصف بأنها دفاعية أكثر من هجومية، فعملوا على تقوية سيطرتهم على سواحل البحر الأحمر، كما عملوا على تطهير السواحل العربية بوجه عام من الجيوب البرتغالية.

والواقع أنه على الرغم من أهمية إرسال حملة عثمانية كبيرة إلى الهند -في ذلك الوقت- لضرب مراكز البرتغاليين القوية هنالك ، فقد كان من الضروري على العثمانيين أن يهتموا بطرد البرتغاليين من المناطق العربية الساحلية، وتكوين جبهة عربية -إسلامية في المنطقة تحت قيادتهم، وذلك قبل توجههم إلى الهند مباشرة.

وهكذا كانت أعمال سليمان باشا في اليمن -على الرغم مما شابها من أخطاء وهفوات وانتكاسات- بداية للحكم العثماني هنالك، فضلاً عن كونه بداية لمرحلة جديدة من مراحل تاريخ اليمن الحديث.